الكتابات الأثرية العربية في المغرب الإسلامي
مقاربة هستوغرافية

د. سرحان حليم. جامعة محمد بوضياف المسيلة

مقدمة:

تعتبر الكتابات الأثرية الإسلامية عامة، والمغربية خاصة من أهم المصادر الحسية التي نالت اهتمام الدارسين المعاصرين، واعجابهم لا سيما منهم المستعربين المتخصصين في مجالات الدراسات الأثرية، والتاريخية، والفنية[1]، ويبدو التداخل بين تلك المجالات واضحا في كثير من تلك الأعمال المعمارية ذات البعد التراثي، والتي تحمل نقوشا وكتابات متنوعة نفذت بعدة طرق، واستعملت في تجسيدها على أرض الواقع خطوط مختلفة مثل الكوفي، والمغربي، والأندلسي كان الغرض الأول من انجازها تخليد ذكرى مؤسسها، وتوريث مناقبه عبر الزمن. وهي بلا ريب ذات قيمة كبيرة بالنسبة للباحثين، لما لها من دلالات حضارية جمة بما تحويه من ألقاب السلاطين، وأسماء الخلفاء، ووظائف الأمراء، وصيغ دينية، وعبارات سياسية، وشارات ملك، وشعارات مذهبية، وزخارف جمالية، ورموز، ومعلومات هامة يصعب الطعن في مضامينها بسهولة مسايرة لقول الدكتور صالح بن قربة[2]. وحتى نسلط الأضواء الكاشفة على جزء مهم من الكتابات المغربية في العصر الوسيط أثناء حكم الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط، كان لزاما علينا أن نعرض لبعض النصوص المصدرية، والمرجعية التي تناولت هذا الموضوع القيم في هذا الميدان العلمي، مع التطرق إلى تراجم موجزة لأصحابها، وتبيان أهميتها فيما يلي:

أولا_ محمد بن عبد الملك المراكشي:

ولد أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعيد عبد الملك الأنصاري الأوسي المكنى بالمراكشي نسبة لمكان مولده الذي قال هو نفسه عنه:

اعلم بأن مولدي بالحضرة * * مراكش العليا دار الإمرة

وحسب ما جاء في أقوال بعض الكتاب على اختلاف سندهم الذي اعتمدوه، فمنهم من جعل تاريخ مولده في سنة 634هـ/ 1234م، واجتهد أخرون في وضع سنة 627هـ/1230م، درس ابن عبد الملك على جماعة من الشيوخ بلغ عددهم قرابة الخمسين شيخا منهم الرعيني، ابن هشام، ابن عفير، وابن عتيق الذي قرأ عليه برهة من الزمن بمدينة مراكش حوالي سنة 650هـ، وأبا القاسم البلوي، وأبا محمد حسن ابن القطان، وأبو إسحاق إبراهيم

1_ صالح يوسف بن قربة: **أبحاث ودراسات في تاريخ وآثار المغرب الإسلامي وحضارته**، دار الهدى، الجزائر، 2011.، ص ص، 187-192.

1_ صالح بن قربة: **"مقدمة لدراسة الكتابات الأثرية المغربية في العصر الإسلامي"**، مجلة الدراسات الأثرية، عدد2، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 1992.، ص، 54.

بن أحمد وغيرهم من فطاحل عصره[1]. ويذكر أن من بين أصحابه وأقرانه الذين درسوا معه عند أولئك الأساتذة العبدري محمد صاحب الرحلة المعروفة، وكذا ابن رشيد السبتي مؤلف الرحلة الجامعة المستوعبة للفوائد، ومنهم أبو جعفر أحمد بن محمد البلنسي وما سواهم. ومن تلاميذه ابن فرحون على سبيل الذكر. تقلد صاحبنا عدة وظائف في الفترة التي عرفت فيها البلاد اضطرابات جمة منها زوال دولة الموحدين وقيام دولة المرينيين حيث شغل منصب كتابة الشروط وعقد الوثائق التي أصبح فيها عمدة الكتاب، كما ولي القضاء بمدينة مراكش مدة من الزمن في عهد السلطان يوسف بن يعقوب (685هـ-706هـ) ثم عزل من منصبه وقد اختلف في تحديد سنة وفاته فهناك من أرجعها إلى سنة 708هـ/1308م[2]، ومن قال عكس ذلك أي سنة 703هـ/1303م[3].

يعتبر كتاب الذيل والتكملة أكبر موسوعة مغربية مدونة في التراجم، وهو إصلاح الهفوات التي جاءت في كتاب الصلة لابن بشكوال، وتكمن أهمية الكتاب في إضافة تراجم الغرباء

إلى الأندلسيين الذين دخلوا شبه الجزيرة من المغاربة، ولابد من الإشارة إلى أن التراجم الأندلسية الواردة فيه تحوي أخبارا عن الحياة الفكرية في المغرب خلال العصر الموحدي. كما اشتمل الذيل على تراجم النساء، وأسماء الكنى، وأسماء البلدان الأندلسية وغير الأندلسية، ويبدو أن المراكشي توفي قبل أن يتم انجاز ما وعد به في مستهل مؤلفه.

ويذكر محمد المنوني أن الذي كان معروفا من الذيل إلى أواخر القرن الهجري التاسع، هو تسعة أسفار، وبقي منه في الوقت الراهن خمسة، نشر في بيروت أربعة منها برعاية دار الثقافة. وهذه الأسفار سنتناولها جميعها على النحو التالي:

1_ السفر الأول في جزأين بهما 871 ترجمة جاءت في 567 صفحة ماعدا الفهارس وذلك بتحقيق محمد بن شريفة، وهو سفر خاص بمن اسمه أحمد من حرف الألف.

2_ السفر الرابع وهو الجزء الذي تبقى من هذا السفر، ويشمل على 407 ترجمة وردت في 234 صفحة، وقد حوى في طياته الحروف (س، ش، ص، ض، ط، ظ، وع).

2_ ينظر تقديم محمد بن شريفة في: المراكشي: **السفر الثامن من كتاب الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة، القسم الأول**، تقديم وحقيق وتعليق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984.، ص ص، 10-42.

1_ عبد العزيز الأهواني: " **الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة** " صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 13، مدريد، إسبانيا، 1965-1966.، ص، 187.

2_ ينظر مقدمة إحسان عباس في كتاب المراكشي: **الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة**، السفر الرابع، نشر و توزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1965.، ص، 6.، ينظر: عبد القادر بوباية وآخرون: **مصادر ومراجع تاريخ المغرب الأوسط (الجزائر) خلال العصر الوسيط**، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 2014.، ص،169.

3_ السفر الخامس يتألف من جزأين بهما 1299 ترجمة جاءت في 695 صفحة، وفيه الحروف (غ، ف، ق، ك، ل، م).

4_ السفر السادس ورد في جزء واحد به 1292 ترجمة في 500 صفحة ويشمل على بقية حرف الميم. وما تنبغي الإشارة إليه أن هذا السفر ومعه الرابع والخامس تم تحقيقهم من طرف الدكتور احسان عباس[1].

كما تكمن أهميته من جهة أخرى بالنسبة للكتابات المغربية في العصر الوسيط، في كونه يمدنا بقدر كاف من المعلومات التي ترتبط ارتباطا وثيقا بتراجم كثير الشخصيات المغربية العلمية والفكرية، والدينية، وغيرها التي عاشت في الفترة محل الدراسة، لاسيما الشق المتعلق بدراسة شواهد القبور التابعة لهؤلاء بمدينتي سلا والرباط. فلا تقوم دراسة من هذا القبيل إلا باعتماده.

ثانيا_ ماكس فان برشم:

ينحدر هذا المستشرق الذي يعد بحق مؤسس علم الكتابات العربية، والخبير الفذ في الآثار الاسلامية من أسرة فلمندية استقر بها المقام لفترة طويلة بمدينة جنيف السويسرية، حيث ولد هنالك في16مارس سنة 1280هـ/ 1863م[2]. تعلم تاريخ الفن في الجامعات الألمانية ليبسيك، وبرلين إلا أنه لم يشتغل كأستاذ بأي منها، كما درس بمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس، ثم بمصر، وبقي عالما حرا وعصاميا يعتمد على التحصيل الذاتي للمعارف المختلفة[3]. ثم انتخب عضو بالمجمع العلمي العربي بدمشق. انكب منذ ذلك الوقت الذي بدأ فيه التجوال في المشرق الإسلامي أي في سنة 1886م حسب ما ذهب إليه غاستون فيت على دراسة الكتابات العربية الموجودة على التحف، واللقى الأثرية المنقولة من المعالم التاريخية ملزما نفسه بوضع كتاب جامع لها رصد فيه ما توصل إليه الكتابات العربية المنقوشة عليها وتفسيرها تفسيرا فيلولوجيا يخدم هذا المجال العلمي التطبيقي مثل ما فعلت أكاديمية النقوش والآداب الجميلة في العاصمة الفرنسية باريس، وأدرج هذا العمل تحت عنوان: (*Corpus inscriptionum Arabicarum*)[4].

وتجدر الإشارة إلى أنه ربط دراسته بتلك الآثار التي وجدت عليها هذه الكتابات سواء كانت عمائر أو مسكوكات لاقتناعه التام بوجود علاقة وطيدة بين الأثار والكتابة لا يمكن فصلها عن المسيرة التاريخية التي تجمعهما، وجاءت

1_ محمد المنوني: **المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث**، ج1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب، 1983، ص ص، 71-72.

2 _ *Gaston Wiet : « **Max Van Berchem (1863-1921): Créateur de L'épigraphie Arabe »,** revue Suisse d'histoire, n°13,Genève, La suisse, année 1963., p, 379.*

3_ عمر رضا كحالة: **معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية**، الجزء3، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1993.، ص ص، 8-9.

1_ عبد الرحمان بدوي: **موسوعة المستشرقين**، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1993، ص، 90.

مؤلفاته على هذه الوتيرة: (*Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum*) إذ اشتمل المجلد الأول منها الكتابات الموجودة في القاهرة، والثاني احتوى الكتابات الموجودة بمدينة القدس، والمجلد الثالث خصص لآسيا الصغرى بالاشتراك مع الباحث خليل أدهم. كما قام بالكتابة في موضوعات متفرقة تتعلق هي الأخرى بالكتابات في كل من ديار بكر، وأرمينية، وسورية، والعراق. توفي سنة 1339هـ/ 1921م.

ومن أعماله التي كرسها للكتابات المغربية، وسنقوم بعرضها، وتحليلها، ونقدها ما يلي:

« *L'épigraphie Musulmane en Algérie étude sur le corpus* » , *revue Africaine, volume 49, A. Jourdan, Alger, 1905., pp,160-191.*

« *Titres califiens d'occident, À-propos de quelques Monnaies Mérinides et Ziyanides* », *journal asiatique, Dixième série, TIX, Paris, 1907. Pp, 245-335.*

يتناول هذا الباحث في الموضوع الأول المذكور قبل حين الكتابات الإسلامية بالجزائر مشيرا بذلك إلى جهد اثنين من أشهر المتخصصين في هذا المجال هما مرسييه وكولين، اللذين اهتما بمتابعة كل ما وصلت إليه يداهما من اللقى الأثرية الأبيغرافيا في تلمسان، والجزائر، وقسنطينة زيادة على المغرب، والقيروان بتونس.

أما الموضوع الثاني فيعالج فيه الألقاب الخلافية الواردة في السكة الإسلامية في الغرب الإسلامي في دولتي بني مرين على عصر السلطان أبي عنان المريني (749 -759هـ/ 1348-1358م)، ومنها السلطان عبد الله أمير المؤمنين المتوكل على الله، ابن الأئمة المهتدين الخلفاء، وما إليها من ألقاب[1]. أما دولة بني زيان في عصر أمير المؤمنين أبي تاشفين عبد الرحمان الأول (718-737هـ/ 1318-1337م) فيخصص لها حيزا معتبرا في بحثه على شاكلة سابقه. تبعا لما سبق يبدو أن ما قدمه فان برشم يخدم موضوع الكتابات في ذكره لمختلف الألقاب والشعارات المنقوشة على السكة المغربية ومقارنتها بمثيلاتها في المشرق والمغرب متتبعا ظهور الألقاب الخلافية عبر جميع الدول التي ظهرت في المنطقة مرورا بالفاطميين، والزيريين، والحماديين، والمرابطين، والموحدين.

ثالثا_ جوزيف بوريلي:

ولد بمدينة طولون الواقعة جنوب فرنسا في 21مارس 1878م، ينحدر من عائلة ثرية، ومتعلمة، تلقى مبادئ العلم في مسقط رأسه، ثم سافر إلى جامعة إكس أونبروفانس لاستكمال دراسته في الحقوق، وسرعان ما توجه نحو الدراسات الإنسانية، ومنها إلى علم الأثار متخصصا بادئ الأمر بالعصر الحجري الحديث باحثا، ومنقبا. جند في الحرب العالمية الأولى، وأرسل إلى تازا بالمغرب الأقصى، وكان يقضي معظم أوقات الفراغ متجولا في المواقع الأثرية

[1]_ *Max van Berchem :* ***« Titres califiens d'occident, À-propos de quelques Monnaies Mérinides et Ziyanides »,*** *journal asiatique, Dixième série, TIX, Paris, 1907. Pp,247-253* .

المنتشرة هنالك، وبعد برهة من الزمن، أي في نهاية الحرب أطلقت السلطات العسكرية سراحه إذ أدرج اسمه ضمن قائمة هيئة التدريس بثانويتي وجدة، والرباط آخر الأمر. ويظهر أن الأجواء الجديدة هنالك ساعدته على المقام بعد التقائه مع نخبة من المستشرقين أمثال إميل لاوست، وليفي بروفنسال، وهنري تراس ونظرائهم أرغمته على البقاء وعدم العودة إلى فرنسا، حيث بقي إلى غاية وفاته بالدار البيضاء بالمغرب في 15جانفي سنة 1929م. عمل بالقضاء لبرهة من الزمن ثم حول نشاطه بمعية المستشرق لاوست إلى دراسة النصب الجنائزية، وشواهد القبور المغربية بمدينتي سلا، والرباط، إلا أن ما يميز نشاطه في مجال البحث العلمي ميله أكثر إلى الأبحاث الأنثروبولوجية التي جعلت الانسان محورها الأساسي، ترك بعض الأعمال منها على سبيل الذكر:

« *Stèles funéraires marocaines », en collaboration avec E. Laoust. _ Hespéris, tome03, Rabat, 1927.*

_ « *Découvertes préhistoriques au Maroc oriental » Bulletin soc. Préhistoire. France T12, France, 1915*[1].

ولا يسعنا بعد هذا العرض الموجز عن سيرة الباحث بوريلي إلا ترك الحديث عن موضوع شواهد القبور المغربية إلى حين عرض ترجمة المستشرق إميل لاوست فيما يلي:

رابعا_ إميل لاوست:

ولد المستشرق المختص في اللسانيات بمنطقة فرن سير إسكوا شمال فرنسا في 20 جويلية سنة 1876م، بدأ مشواره المهني مدرسا في بعض المدارس الابتدائية شمال فرنسا ثم انتقل إلى الجزائر أي إلى بلدة حجوط الواقعة بمدينة تيبازة، وبعدها انتقل إلى غرداية قبل أن يناقش رسالة الدكتوراه بجامعة الجزائر سنة 1912م ثم اشتغل أستاذا في المدرسة العليا للغة العربية واللهجات البربرية بمدينة الرباط المغربية بدأ من سنة 1935م، حيث كرس حياته المهنية من أجل تدريس تلك اللهجات المختلفة السائدة بين السكان لاسيما البربر منهم المقيمين في الشمال الإفريقي. حيث استقر به المقام بالمغرب الأقصى فترة طويلة من الزمن مدرسا وكاتبا إلى غاية وفاته بمدينة الرباط سنة 1952م[2]. وقد خلف وراءه ولدا نجيبا حمل لقبه، وسار على دربه في ميدان الدراسات الاستشراقية يدعى هنري لاوست (1905-1983)، كان أستاذا مبرزا في الكوليج دي فرانس في العاصمة الفرنسية باريس[3].

تكمن أهمية هذا النص:

---

[1] _ *Georges Souville : « **Joseph Bourrilly (1878-1929)** », Académie des Sciences d'outre-mer. Hommes et **Destins**, tome VII, Maghreb, pp.93-95.*

[2] _ *François pouillon : **dictionnaire des orientalistes de Langue française**, éditions Karthala, paris, 2008. p, 561.*

[3] _ *Alain Messaoudi, **Les arabisants et La France coloniale annexes**, ENS éditions, Lyon, France, 2015. pp, 16,210-212.*

« Stèles funéraires marocaines », *en collaboration avec E. Laoust. Hespéris, tome03, Rabat, 1927.*

في كونه يمدنا بمعلومات قيمة عن الكتابات الشاهدية، والجنائزية بمدينتي سلا (سيدي هشام، وسيدي بن عشير) لاسيما تلك الواقعة على ساحل البحر، والقريبة من مصب أبي رقراق، والرباط (مقبرة شلا الخاصة بملوك الدولة المرينية)، مع تحديد أشكالها ومحتوياتها، ودراستها دراسة تاريخية أثرية، وفنية ومقارنتها مع مثيلاتها الإسلامية واليهودية في الجزائر[1].

خاتمة:

بناء على ما سبق يمكننا القول إن علم الكتابات الأثرية العربية عرف طريقه إلى الانتشار مع المستعرب السويسري ماكس فان برشم الذي وضع القواعد والأسس التي سار عليها المختصون في هذا الميدان العلمي بعد وفاته سنة 1921م. وتكمن أهمية الكتابات الأثرية في أنها قريبة زمنيا من الحقائق والأحداث التي تسجلها، وأنها محايدة لا مراء في ذلك يمكن الاعتماد عليها لأنها بكل بساطة تعوض النقص، وتسد الفراغ، وتزيل الغموض الذي تتركه عادة المصادر التاريخية دون تعليق أو توضيح. ومن ناحية ثانية تمتاز بأن التواريخ التي تقدمها تكون في غالب الأحيان صحيحة، الشيء الذي يجعل التزييف والتصحيف فيها قليل بل نادر الوقوع، علاوة على أنها تفيد في مراقبة أقوال المؤرخين، وتحليل نصوصهم الموثقة وتساعد في إثبات صحتها أو الكشف عن أخطائها إن وجدت، كما تمدنا بمعلومات قيمة مستمدة منها.

---

[1]_ *J.Bourrilly et E. Laouste : **« Stèles funéraires marocaines »,** collection Hespéris, n°03, institut des hautes-études marocaines, Librairie Larose, Paris , 1927. Pp, 1-94.*